﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: 118]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين الإقرار بألوهيّة الله ورقابته، وكونِ عباده بين عذابه وغفرانه

لمّا كان ما سلَفَ منَ الآياتِ كلُّه - سُؤالًا وجوابًا وإخبارًا - حمدًا لله تعالى وثناءً عليه بما هو أهلُه؛ بالتَّنزيه له، والاعترافِ بحقِّه، والشَّهادةِ له بعلم الخفايا، والقُدرةِ، والحكمةِ، وغيرِ ذلك من صفات الجلال والجمال، وكان هذا السُّؤال يُفهمُ إرادةَ التَّعذيب للمسؤول عنهم، مُشيرًا إلى الشّفاعة فيهم على وجه الحمد لله ﷻ، والثَّناء الجميل عليه؛ لأنَّ العذابَ - ولو للمطيع - عدلٌ، والعفوَ عنِ المعاصي - بأيّ ذنب كان - فضلٌ مُطلَقًا، وغفرانَ الشِّرك ليس ممتنعًا بالذّات: قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُعَذِّبۡهُمۡ﴾: التَّعذيبُ: مَصدَرُ عَذَّبَ، وهو الشِّدَّةُ والعُقوبَةُ، وأَصلُ الكَلِمَةِ منَ العَذْبِ، وهو: المَنعُ. ويأتي التَّعذيبُ بمعنى الإيلامِ والإيجاعِ الشَّديدِ[2]، و"عذّبته تعذيبًا عاقبتُه، والاسم: العذاب، وأصله في كلام العرب الضّربُ، ثمّ استُعمل في كلّ عقوبةٍ مؤلمةٍ، واستُعير للأمور الشّاقّة، كالسّفر، فقال ﷺ: «السّفرُ قطعةٌ منَ العذاب»[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/368.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذب).

(3) الحديث أخرجه البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1804)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1927)، والنّسائيّ، السّنن الكبرى، الحديث رقم: (8783)، وابن ماجه، سنن ابن ماجه، الحديث رقم: (2882)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (9740). ويُنظر: الفيّوميّ، المصباح المنير: (عذب).

2) ﴿عِبَادُكَ﴾: جمع عَبْدٍ، والعبادةُ: الطّاعةُ والقُربَةُ. يُقال: عبَدتُ اللّهَ، أعبدهُ، عِبادةً؛ أي: أَطعتُه وتقرَّبتُ إليهِ. وأصلُ العِبادَةِ: التَّذلُّل واللّين. ومن معانيها: الخُضوع، والانقياد[1]، قال الخليل: "إلّا أنّ العامّة اجتمعوا على تفرقةِ ما بين عباد اللّه، والعبيد المملوكين، يُقال هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، ولم نسمعْهم يشتقّون منه فعلًا، ولو اشتقّ لقيل عَبُد؛ أي: صار عبدًا، وأقرّ بالعُبودة، ولكنّه أُميت الفعلُ فلم يُستعمل. قال: وأمّا عَبَدَ يعبد عبادةً، فلا يُقال إلّا لمَن يعبُد اللّه تعالى"[2].

3) ﴿تَغْفِرْ﴾: الغُفرانُ: المُسامَحَةُ والعَفوُ، والاستغفارُ: طَلَبُ المَغفِرَة. ويأتي الغُفرانُ بمعنى التَّجاوُزِ عنِ الذَّنبِ وعَدَمِ المُؤاخَذَةِ به. وأَصلُ الغُفرانِ مِنَ الغَفْرِ، وهو: التَّغطيَّةُ والسَّترُ والإدخالُ، ومنه سُمّيَ العَفوُ غُفرانًا؛ لأنَّهُ سَترٌ للذَّنبِ، وإدخالٌ للعَبدِ في العَفوِ[3].

4) ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: العَزيزُ في كلامِ العَرَبِ على أَربعَةِ أَوجُهٍ، العَزيزُ: الغالِبُ القاهرُ، والجليلُ الشَّريفُ، والقويُّ، والشَّيءُ القليل الوجودِ المنقطعُ النَّظير. ويجوزُ وصفُ اللّه ﷻ بالثّلاثة الأوَل، يُقال: (اللّه العزيز): بمعنى: الغالب القاهِر، و(اللّه العزيز)؛ أي: هو الجَليلُ العَظيمُ، و(اللّه العزيز): بمعنى القَويّ[4].

5) ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الّذي يُحكم الأشياء ويُتقنها، أو ذو الحكمة، والحكيمُ مَن يضع الأمورَ في نصابها، وقد امتنّ اللّه تعالى على لقمان بأن آتاه الحكمة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12][5]، والحكيم هنا هو اللّه تعالى، المتّصف بالحكمة في تدبير كونه، وهو الّذي أَفعالُهُ مُحكمَةٌ مُتقَنَةٌ، لا تَفاوتَ فيها ولا اضطِرابَ، ومِنهُ قيلَ: (بِناءٌ مُحكَمٌ)؛ أي: قد أُتقِنَ وأُحكِمَ، فاللّه ﷻ حَكيمٌ كما وصَفَ نفسَهُ بذَلكَ؛ لإتقانِ أَفعالِهِ واتِّساقِها وانتظامِها، وتعلُّق بعضها ببَعضٍ[6].

(1) الأزهريّ، مقاييس اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عبد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (غفر).
(4) الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 237، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عزّ).
(5) الحازميّ، الآثار التّربويّة لدراسة اللّغة العربيّة، ص: 496.
(6) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 52، والزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 60، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (حكم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تبرّي عيسى عليه السلام مِن مقالةِ قومه، وردُّ المشيئة إلى الله

يقول عيسى عليه السلام لربّه ﷻ يوم القيامة - مُتبرِّئاً ممّا حكاه قومُه -: إنْ تُعذّب هؤلاء يا ربِّ، فإنَّهم عبادُك، تفعل بهم ما تشاء، وإن تَمْنُن على مَن آمنَ منهم بالمغفرة، فلا مانع لكَ مِن ذلك، فأنتَ العزيز الَّذي لا يُغالَب، فمغفرتك صادرةٌ عن تمام عزَّةٍ وقدرةٍ، وليست عن عجزٍ، وأنتَ الحكيمُ في تدبيرك، فمقتضى حكمتِك أن تغفرَ لمَن أتى بأسباب المغفرة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تَفْوِيضُ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ ﷻ فِي التَّعْذِيبِ وَالغُفْرَانِ

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملَتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ سؤالَ اللهِ تعالَى لِعيسَى عليه السلام يُشْعِرُ بإرادَةِ تعذيبِ المسؤولِ عَنْهُمْ، وذلك قَدْ يَكونُ حاملًا لعيسَى عليه السلام على الشَّفاعَةِ فيهم، فيَرِدُ في نفسِ المتلَقّي سؤالًا: هَلْ شفَعَ فيهم عيسَى عليه السلام؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا مقالَتَهُ عليه السلام المتضَمِّنَةَ تفويضَ الأمْرِ إلى اللهِ ﷻ وحْدَهُ؛ بأنَّه إن عذَّبهم على ما بدرَ مِنْهُمْ فهم عبادُهُ يفعَلُ بِهِمْ ما يشاءُ، وإن يغفِرْ لِمَنْ تابَ مِنْهُم فلم يُؤاخذه على ما بدَرَ مِنْهُ مِنَ الكُفْرِ والضَّلالِ قبل التَّوبةِ؛ فإنَّه سُبحانَهُ عزيزٌ حكيمٌ.

ويجوزُ أن تَكونَ الجملةُ استئنافًا يُرادُ بِهِ الاستعطافُ.

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِالحَرْفِ ﴿إِن﴾:

قَبُولُ اللهِ ﷻ تَوْبَةَ مَنْ تَابَ مِنْ عِبَادِهِ: مَحْضُ فَضْلٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قول اللهِ ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ بالحرف ﴿إِن﴾؛ لأنَّه موضوعٌ في الأَصْلِ لِما لا يُقْطَعُ بوقوعِهِ، وذلك لأنَّ المعذَّبين إن كانوا قدْ تابوا من مقالةِ الكُفْرِ، فإنَّ قبولَ اللهِ ﷻ توبتَهُمْ تفضُّلٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 127، جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 127.

منهُ عليهم، وجائزٌ أن يُؤاخِذَهُمْ على ما صدَرَ مِنْهُمْ، وإن كانوا لم يَتوبوا وبَقَوْا على شِرْكِهم فإنَّ اللّه سبحانَهُ قضَى عليهم بالتَّعذيب في النّار جَزْمًا، ويكونُ استعمالُ حرفِ الشَّرْطِ ﴿إن﴾ مِنْ بابِ تأدُّبِ عيسَى ﷺ معَ ربِّهِ سُبحانَهُ، حيث لَمْ يتقدَّم بينَ يديْهِ بالحُكْمِ عَلَيْهِمْ.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ دون غيره:

تحملُ الآيةُ جانبًا لطيفًا وهو قولُه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، فإنَّه تعالى لم يَقُل: (إنْ تُعذِّبهم فإنَّهم أحقّاء بذلك) أو (فذلك عَدْلٌ)؛ لكونهم عِبادًا للّه، ومعناه: أنَّه المُستحِقُّ للعبادةِ دون غيره، وأنَّه الإلهُ الحقّ، فلو قال: (فإنَّهم أحقّاء بذلك)، أو قال: (فذلك عَدْلٌ) لم يعنِ ذلك أنَّهم عبادُه، فالنّاسُ ليسوا عبادًا لَمن يعدلُ، كما أنَّهم إذا كانوا أحقّاء بالعَذاب، فليس معناه أنَّهم عبادٌ لَمن عذَّب، فالَّذي يعذِّب شخصًا أو جماعة لا يعني أنَّ المعذَّبين عبادُه، فاختيارُ لفظِ العبوديّةِ أنسبُ شيء في هذا المقام. يُضاف إلى ذلك أنَّه تعالى قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، ولم يقُل: (فَهُم عبادك)؛ لتأكيد عبوديّتهم للّه ﷻ، وبذلك يفعل اللّه تعالى بهم ما يشاء، فليس هناك مِن مُعترِض على ما يفعل بِهم من تعذيبٍ أو مَغفرةٍ، فالأمرُ كلُّه إليه، ومتروك لمشيئته، ومُناط بعزَّته وحكمته وحُكمه، فإنَّه هو العزيز الحكيم[1].

تنوّعُ المعاني أثرٌ لانتقاء اللّفظ القرآنيّ

دِلَالَةُ الفَاءِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ داخِلَةٌ على جوابِ الشَّرْطِ؛ لِكَوْنِ جملةِ الجوابِ جملَةً اسميَّةً فوجبَ اقترانُهُ بالفاءِ، وفي تَرْتيب هذا الجَوابِ علَى الشَّرْطِ تفويضُ الأَمْرِ إلى اللّهِ ﷻ؛ إذْ هوَ المالكُ لهُمْ مُلْكًا تامًّا، يتصرَّفُ فيهم كما يشاءُ سُبحانَهُ كما تقتَضيه حكمَتُهُ.

العِبَادُ جَمِيعًا مِلْكٌ للهِ تَعَالَى يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَمَا يَشَاءُ بِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ

(1) الزّركشّي، البرهان: 1/90، والسّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 80.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾:

تأكيدُ الاستِسْلامِ للهِ وتَفْويضُ الأُمُورِ إِلَيْهِ

قُرِنَت جملةُ الجَوابِ ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ بأداة التَّوكيدِ (إِنَّ) تأكيدًا لِلاسْتِسْلامِ للهِ سُبْحانَهُ وتَفْويضِ الأَمْرِ إِلَيْهِ، ومبالغَةً في تفويضِ الأمْرِ إليه.

دِلَالَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾:

تَسْلِيمُ عِيسَى عليه السلام لِأَمْرِ اللهِ وَاسْتِجَارَتُهُ مِنْ عَذَابِهِ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جُملَةِ الشَّرْطِ أَنَّهُ يُنظَرُ إليها باعتبار جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كان جوابُها إنشاءً فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ خبرٌ، فالجملةُ خبريَّةٌ.

وهذا الخبَرُ لا يُرادُ به فائدَةُ الخبَرِ ولا لازِمُها، بل خرَجَ عَنْ أَصْلِهِ إلى إرادَةِ أحدِ معْنَيَيْنِ:

أحدهُما: أنَّه خبرٌ يُرادُ به الاستعطافُ والرَّأفَةُ بهِمْ.

والآخَرُ: أنَّ خبَرٌ يُرادُ به التَّسليمُ لأمْرِ ربِّهِ والاسْتِجارَةُ مِنْ عذابِهِ[1].

فالجملَةُ على هذا مجاز مرسَلٌ مركَّبٌ، والمعنيانِ المذكوران لا تعارُضَ بينَهُما، بَلْ تَجوز إرادَتُهُما معًا؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

دلالةُ تقديم لفظ (التَّعذيب) على لفظ (المغفرة):

كلُّ لفظٍ مُقدَّم في القرآن هو أولى بالتَّقديم، ولا يصلحُ غيرُه مكانَه

جيء بهذه الآية الكريمة بهذا التّرتيب؛ إذ قُدّم فيها التَّعذيبُ على المغفرة؛ ليناسب سياقَ الآيات السّابقةِ في مَواضِعَ مهمّةٍ منها: الأوَّل: أنّ الآية جاءَت في سياق التَّهديدِ والوعيد بالعذاب الشَّديد،

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/89.

لَمن يكفرُ بعد نزول المائدة منَ السَّماء: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والآخر: أنَّ الآية وردت في سياق التَّبرُّؤ من قولٍ قالته طائفةٌ منَ النَّصارى، ونسبتْه إلى عيسى عليه السلام، حكاه الله تعالى بقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. فهاتان المسألتان تفسِّران تقديمَ التَّعذيب على المغفرة في الآية.

بلاغةُ تناسبِ الأطراف في الآية:

خَتمُ الكلام بما يناسب أوّلَه في المعنى من اتّساق النّظم وإحكامه

ذَكر الزَّركشيُّ في بُرهانه بيانَ علَّةِ تناسبِ أطراف الآية الكريمة[1]، فقال: "لا يَغفرُ لَمن استحقَّ العذاب إلّا مَنْ ليس فوقه أحدٌ يردُّ عليه حُكمه، فهو العزيزُ؛ أي: الغالب، والحكيمُ: هو الَّذي يضَع الشَّيءَ في محلِّه. وقد يَخفى وجهُ الحكمة على بعض الضُّعفاء في بعضِ الأفعال، فيتوهَّم أنَّه خارجٌ عنها، وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراسٌ حسَن؛ أي: وإنْ تغفر لهم مع استحقاقهم العذابَ فلا مُعترِضَ عليك لأحدٍ في ذلك، والحكمةُ فيما فعلته"[2].

فنُّ التَّخيير والتَّناسبِ في الآية:

تسليمُ الأمور وتفويضُها لله ﷻ مِن دلائل الإيمان

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يوهمُ أنَّ الفاصلةَ هي (الغَفور الرَّحيم)؛ لمناسبة ما بين الغُفران والغَفور، وهو من فنّ التخيير والتناسب[3]، ولكن لو جاءتِ الفاصلةُ (الغفور الرَّحيم)، بعد ذِكر

(1) تناسب الأطراف: هو أن يبتدئ المُتكلِّم كلامه بمعنى، ثمّ يختمه بما يتناسب مع ذلك المعنى الّذي ابتدأ به، وهذا النّوع جعله الخطيب في التّلخيص والإيضاح من مراعاة النَّظير، قال: ومِن مراعاة النَّظير ما يسمّيه بعضُهم تشابه الأطراف، وهو أن يختمَ الكلامَ بما يناسب أوَّله في المعنى. الإسفراييني، الأطول: 2/383، وابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 306، والصّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/584.

(2) الزّركشّي، البرهان: 1/89 - 90، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/139، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 1/36 - 37.

(3) التَّخيير: الإتيانُ بكلام يَسوغُ أن يُقفَّى بقوافٍ شتَّى، فيُتخيَّرُ منها قافيةٌ مُرجَّحة على سائرِها، ويُستدلُّ بإيثارِه إيّاها على حُسن اختيارِه، وصِدق حسِّه، وقد تَقضي البداهةُ الأولى بأنْ تكونَ غيرَ ما اختاره، ولكنَّه عزَفَ عن ذلِك لسرٍّ دقيقٍ، وفي هذه الآية: البداهةُ البدائيةُ تَقضي بأنْ تكون الفاصلةُ: (إنَّك أنت الغفور الرّحيم)، لملاءمتِها لقوله: إنْ تَغْفِرْ، ولمناسبته ما بين الغُفران والغفور، ولكنَّ هذا الوهمَ النّاجِمَ عن هذه البداهةِ سَرعانَ ما يَزولُ أثرُه عندما يَذكُر المتوهِّم أنَّهم استحقّوا العذابَ لا الغُفران. السُّبكيّ، عروس الأفراح: 2/311، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/54 - 56.

الغُفران، لكان في ذلك تسجيلٌ بالغُفران، وهم لا يُغفر لهم، وتقتضي البلاغةُ أن تكونَ الفاصلةُ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّه لا يغفر لمَن يستحقّ العذابَ إلّا من ليس فوقه أحدٌ يرُدّ عليه حكمَه، ولا بدَّ أن يوصف بالحكمة، لأنَّه الحكيمُ الَّذي يضع كلَّ شيءٍ في مَوضِعه[1].

أهمّيّةُ قصْر صفتَي العزّة والحكمة على الله دون سواه، في هذه الآية:

استعمل عيسى عليه السلام القصرَ بأسلوب التَّعريف؛ أي: تعريف المسنَد إليه، مع توظيف أداة التَّوكيد (إنَّ)، والتَّوكيد اللَّفظيّ بالضَّمير ﴿أَنتَ﴾، وتعريف: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ للدَّلالة على توكيدِ الحُكم، وقصرِ العزَّة والحكمة عليه، والكمالِ فيما وُصِف به، فإنَّه في الحقيقة لا عزيزٌ إلّا هو سبحانه، ولا حكيمٌ عداه، ولا حاكمٌ سواه، فإنَّه لم يقل: (فإنَّك عزيزٌ حكيمٌ)؛ وذلك أنَّ هذا التَّعبيرَ لا يفيد قصْرَ الصِّفتين عليه سبحانه ولا كمالَهما فيه[2]، فضلًا عن ذلك فإنَّ هذا التَّركيب الَّذي ائتلف دلاليًّا وسياقيًّا كشف لنا دلالةً أُخرى، وهي نفيُ الأُلوهيَّة عن غير الله تعالى، وإثباتُها له فهو المتفرِّد بذاته وصفاته لا يشاركُه ولا يشابهُه فيهما أحدٌ، فهو الإله حصرًا والعزيز الحكيم حصرًا[3]، يُضاف إلى ذلك، أنّ كلمة: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ كنايةٌ عن كونه يغفرُ عن مَقدرَةٍ، وذكر: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لمناسبته للتَّفويض؛ أي: المُحْكِمُ للأُمور العالِم بما يليق بهم[4].

العزيزُ كنايةٌ عن غفرانه، والحكيم دلالةٌ عن تدبيره لأكوانه

بَرَاعَةُ الكِنَايَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

في اسْمِ اللّهِ (العَزيز) مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كنايَةٌ عَنْ كَوْنِهِ سُبحانَهُ يغفِرُ عَنْ مقدِرَةٍ[5]، فاسْمُ اللّهِ

غُفْرَانُ اللهِ تَعَالَى الذُّنُوبَ صَادِرٌ عَنْ تَمَامِ القُدْرَةِ وَكَمَالِ الحِكْمَةِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/54 - 56.

(2) السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 80، وامحمد صافي المستغانميّ، جواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، ص: 148.

(3) السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 80، وداود، دلالات الحوار في سورة المائدة، ص: 50.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/117.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/117.

العزيزُ دالٌّ على مَعْنَى الغالبِ والقاهرِ والعَظيمِ والقَويِّ، ودالٌّ بطريقِ الكِنايَةِ كذلكَ على أنَّ غُفْرانَهُ الذُّنوبَ صادِرٌ عَنْ تمامِ القُدْرَةِ وكمالِها.

بَلَاغَةُ الِاحْتِبَاكِ فِي الآية الكريمة:

أَفْعَالُ اللهِ تَعَالَى غُفْرَانًا وَتَعْذِيبًا وَغَيْرُهُمَا صَادِرَةٌ عَنْ حِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ

في قول الله ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ احتباكٌ، وهو المسمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أو الحذْفَ المقابَلِيَّ، وذلك أنَّ كَوْنَ الخَلْقِ عبادًا للّه تعالَى يقتَضي تمامَ التَّصرُّفِ فيهم مغفِرةً وتعذيبًا كما تقتضيه حكمتُهُ سُبحانَهُ، وغُفْرانُه تعالَى لِلْعِبادِ أو تعذيبُهُ لهُمْ هوَ من مقتضياتِ عِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ، فكانَ تقديرُ الآيةِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ تَمْلِكُهُم، وأنتَ العزيزُ الحكيمُ؛ بحكمَتِكَ وعزَّتكَ كان عقابُهُم، وإن تغفِرْ لهُمْ وتستُرْ قبائِحَهُمْ؛ فإنَّهم عبادُكَ تتصرَّفُ فيهم كما تشاءُ بما تقتضيه حكمتُكَ، وهو غُفْرانُ الغالِبِ القاهِرِ الذي يضعُ الأمور في مواضِعَها[1].

المتشابهُ اللّفظيّ:

عِلَّةُ الذِّكرِ والحَذفِ، في آيتَي المائدة والممتحنة

بالمقارنة بين قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ [الممتحنة: 5]، نتساءل: لمَ خُصَّت آية المائدة بالفاء دون آية الممتحنة؟ والجواب: أنّ آية المائدة، تقدّم فيها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ فلمّا كانت جملة جواب الشّرط اسميّةً وجب اقترانُها بالفاء؛ لذا ناسب دخولُها على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أمّا آية الممتحنة فقد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ﴾ [الممتحنة: 5]؛ فلمّا أُريد تعليلُ الحكم ناسبه الفَصلُ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2412.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العذاب والعقاب والجزاء:

العِقابُ يُنبِئ عن استحقاقٍ، وسُمّي بذلك لأنَّ الفاعل يستحقّه عَقيب فِعْلِه، ويجوز أن يكون العذاب مُسْتَحَقًّا وغيرَ مُستَحَقٍّ، وأصلُ العقاب التُّلوّ، وهو تأدية الأوَّل إلى الثّاني، يُقال: الثّاني عقب الأوَّل إذا تَلاه، وذَكر الكفويُّ أنَّ العِقاب هو جزاءُ الشَّرّ، والنَّكالُ أخصُّ منه، وأنَّ الجزاء إذا أُطلق في مَعرِض العقوبات يُراد به ما يجب حقًّا لله تعالى بمقابلة فِعل العبد؛ لأنَّه المجازي على الإطلاق... والعذاب: الألم الثَّقيل[1]، وقد ورد في السّياق لفظُ العذاب في الآية؛ لأنّه الأنسب للجزاء الوِفاق، الّذي يصطلي به مُستحقّوه ممّن ألّهوا عيسى، وافتروا على الله الكذبَ، وعبدوا غيرَه، وانحرفوا عن مأمور الله في كتابه المُنزَلِ عليهم.

العِباد والعَبيد:

فرَّق الكفويُّ بينهما بأنَّ العَبدَ المضافَ إلى الله تعالى، يجمع على عِباد، وإلى غيره على عبيد، وهذا هو الغالبُ، وفي عُرف القُرآن إضافةُ العِباد تختصّ بالمؤمنين، والعبيد إذا أُضيف إلى الله فهو أعمُّ منَ العِباد. وما ذَكره الكفويُّ فيه نظَر؛ فلم ترِد عبيد في القرآن مضافةً ألبتّة، إنَّما وردت معرفة بـ (ال)[2]، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: 182]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصّلت: 46]، وغيرها.

الصَّفح والعَفو والغُفران:

الصّفح أصلُه الإعراضُ بصفحة الوجه، كأنّك أعرضتَ بوجهكَ عن ذنْبِ المذنبِ، والعفو: تركك إنسانًا استوجب عقوبةً، فعفوت عنه، وهو ضدّ العقوبة، بينما الغفران من غُفْران الذّنوب: وهو سترُها، والمعهود أن يُطلَب منَ الله، قال الله في محكم تنزيله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: 285]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: 3].

وقد فرَّق العسكريُّ بين الغُفران والصَّفح؛ بأنَّ الغُفرانَ يقتضي إيجاب الثَّواب، والصَّفحَ التَّجاوزَ عنِ الذَّنب، مِن قولك: صفحت الورقة، إذا تجاوزتها، وقيل: هو ترك مُؤاخذة المُذنب بالذَّنب، وأن تبدي له صفحةً جميلةً؛ ولهذا لا يُستعمل في الله تعالى.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 364، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 653 - 654.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 649، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 15/1234.

وفرَّق بين الغُفران والعَفو بأنَّ الغُفران يقتضي إسقاطَ العِقاب، وإسقاطُ العقاب هو إيجاب الثَّواب، فلا يستحقّ الغُفرانَ إلّا المؤمنُ المُستحِقُّ للثَّواب، وهذا لا يُستعملُ إلّا في اللّه، والعفو يقتضي إسقاطَ اللَّوم والذَّمّ، ولا يقتضي إيجابَ الثَّواب، ولهذا يُستعملُ في العبد[1].

العزيز والقاهر:

العزّ: خلاف الذّلّ، وعزّ فلان يعزّ؛ أي: صار عزيزًا، وقَويَ بعد ذلّة[2]. وفي أسماء اللّه تعالى (العزيز)، وهو الغالب القويّ الّذي لا يغلب[3]، أو بعبارة أخرى: العزيزُ هو المُمتنع الَّذي لا يُنالُ بالأذى، ويُقال: عزَّ يعزُّ إذا صار عزيزًا، وعزَّ يعزُّ عزًّا إذا قهر باقتدار على المنع، والقهر: الغَلبة، والأخذ من فوق[4]، والصِّفة بعزيز لا تتضمَّن معنى القَهر، والصِّفة بقاهر تتضمَّن معنى العزِّ، يُقال: قهر فلانٌ فلانًا إذا غلبه، وصار مُقتدرًا على إنفاذ أمره فيه، والعزيزُ في الأصل: الغالب الَّذي لا يفوته شيءٌ، ولا يُعجزه شيءٌ[5]. واستعمال "العزيز" ملائمٌ لسياق الآية ومعناها.

الحكيم والعالم:

الحكيمُ على ثلاثة أوجه، أحدها: بمعنى المُحكِم، مثل: البديع بمعنى المُبدع، والسَّميع بمعنى المُسمِع. والثّاني: بمعنى مُحكَم، وفي القرآن: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدّخان: 4]؛ أي: مُحكَم، وإذا وُصِف اللّه تعالى بالحكمة من هذا الوجه كان ذلك من صفات فِعله. والثّالث: الحكيم بمعنى: العالِم بأحكام الأمور، فالصِّفة به أخصُّ منَ الصِّفة بعالِم، وإذا وُصف اللّه به على هذا الوجه فهو من صفات ذاته، ويضاف إلى ذلك، أنَّ العالِم هو الَّذي يَعْلَم الأشياء، والحكيم: الَّذي يَعمل بما يوجبُه العِلْمُ[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 387، و388، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 666.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (عزز).
(4) الخليل، العين: (قهر).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 357 - 358.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/227، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/54.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»